صراع أشور ضد مملكة عيلام (721-681 ق.م)

Assyria conflict Against the kingdom of Elam (721-681 BC)

بوزيد دوة *

جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر 02، ، الجزائر bouzid.doua@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال: 2021/04/26 تاريخ القبول: 2021/05/11 تاريخ: النشر: 2021/06/06

الملخص:

لقد شهدت الدولة الآشورية خلال عصر السلالة السرجونية أخطارًا وتحديات كثيرة هدّدت أمنها واستقرارها، منها الخطر العيلامي، حيث وجّه ملوك عيلام عدّة حملات عسكرية نحو بلاد بابل كما سعوا إلى إحداث الفوضى والقلاقل بالتحالف مع ملوك بابل واستمالتهم ثمّ تحريضهم على العصيان والتمرد، وتشجيعهم على الاستقلال من التبعية الآشورية بدعم حركاتهم التمردية.

وقد وجد المؤرخون في حوليات الملوك الآشوريين مصدرًا مهمًا لتقصّي وتتّبع وقائع وأحداث هذه الفترة، فكثيرًا ما كان هؤلاء –الملوك– يتباهون بما حقّقوه من إنجازات، حيث حظيت حملاتهم العسكرية بالمقام الأول والعناية الأهم في الذكر بهذه السجلات، فتحدّثت بإسهاب عن مواقع ومراحل ونتائج حملاتهم ضد أعدائهم.

الكلمات المفتاحية: سرجون الآشوري؛ سنحاريب؛ الحوليات الآشورية؛ عيلام؛ بابل.

* **المؤلف المرسل**

Abstract:

During the reign of Sargon's Dynasty, the Assyrian Civilization faced many threats and challenges from multiple fronts. Elam was one of the most dangerous of them all due to its kings' constant intention to shake the political stability of Assyria through either launching military campaigns towards Babel or creating chaos and unrest by forming alliances with the kings of Babel, enticing them to revolt and take their independence, and then supporting their rebellious movements.

Historians discovered within the chronicles of the Assyrian kings a significant source to track down and investigate the events of that period. Several Assyrian kings bragged about their achievements within these chronicles in which the military campaigns were the most prominent when it comes to the ample detailing of records, sites, phases, and outcomes of these campaigns against their enemies.

Keyword: Sargon the Assyrian, Sennacherib, Assyrian yearbooks, Elam, Babylon.

مقدمة:

ترك الملك الآشوري شلمنصر الخامس (726–722 ق.م) الدولة الآشورية في وضع أحوج ما تكون إليه إلى ملك قويّ حازمٍ، فالأعداء يتربصون من كلّ جانب ،وكلّ جبهة تريد شق عصا الطاعة وإعلان العصيان في وجه الحكم الأشوري، فالممالك السورية والمدن الفينيقية كثيرًا ما كانت تعقد تحالفات فيما بينها بتحريض من مصر للتخلص من التبعية الآشورية، أمّا عن الجهة الشمالية فنجد أنّ القبائل التي استوطنت شمال بلاد أشور قد توحدَّت وأسّست مملكة عُرفت بمملكة أورارطو وراحت تهدد حدود الدولة الأشورية، أمّا العدّو الأخطر لآشور فهو الأقرب، عيلام التي كانت مصدر خطر للملك سرجون الثاني (721- 705 ق.م) والشغل الشاغل لخليفته سنحاريب (705- 681 ق.م).

تولّى الحكم بعد الملك شلمنصر الخامس الملك الشهير سرجون الآشوري الذي أعاد للدولة هيبتها وحفظ حدودها، وبعدما تمكّن من تأمين الجبهة الشمالية (مملكة أورارطو)، و الجهة الغربية (الممالك السورية ومدن الساحل الفينيقي)، توجّه بأنظاره هذه المرّة صوب مملكة عيلام العدو الأول للدولة الآشورية والتي ما انفكّت تثير الفتن والقلاقل في بلاد بابل ومضارب القبائل الآرامية والكلدية.

وقد عرفت العلاقات الآشورية العيلامية خلال فترة حكم هذا الملك سرجون الثاني وخلفه سنحاريب تطورات خطيرة سعى خلالها كلّ طرف إلى السيطرة وبسط نفوذه على بلاد بابل وما جاورها، وسنعالج في هذا الموضوع إشكالية أساسية تتمحور حول طبيعة الصراع الآشوري العيلامي؟ وكيف تعامل ملوك آشور مع عيلام وأحلافهم في هذه الفترة؟ وما هي أبرز محطات هذا الصراع؟ وما النتائج التي أفضى إليها ؟.

1. عهد الملك سرجون الثاني (721–705 ق.م)

اعتلى العرش الآشوري بعد الملك شلمنصر الخامس الملك الشهير سرجون الثاني الذي أسّس سلالة حاكمة من الملوك، وحكم من بعده أبناؤه وأحفاده (سنحاريب وأسرحدون وأشوربانيبال) وقد أطلق المؤرخون على هذه السلالة الحاكمة اسم (السلالة السرجونية أو الأسرة السرجونية)، تميّزت فترة حكمهم بالإزدهار الاقتصادي والتطّور الحضاري في مختلف الميادين مع اتّساع رقعة الدولة الآشورية[1]، لقد قضى الملك الجديد لآشور السنة الأولى من حكمه في إخماد الثورات والاضطرابات داخل بلاد آشور[2]، أمّا عن الجبهة الخارجية فقد تابع سرجون الثاني السياسة التوسعية للملك تجلاثبليزر الثالث[3]، حيث طرأت تغيّرات عدّة بعد فترة قصيرة من تتويجه ملكًا على آشور، فقد كان لتدخل مصر في شؤون الساحل الفينيقي وبلاد الشام، وتدخل عيلام في الشؤون البابلية تغيّرًا ملحوظًا في الإستراتيجية الآشورية نحو بلاد الشرق الأدنى القديم بأكمله[4].

وترجع أسباب هذا التدخل إلى الإنتصارات العظيمة التي حقّقها الملك تجلاثبليزر الثالث، حيث أدّت توسعاته إلى التوغّل داخل الهضبة الإيرانية ونتج عن ذلك قطع الطرق التجارية أمام

عيلام، أمّا في بلاد بابل فقد استطاع أحد زعماء القبائل الكلدية المدعو "مردوخ-إبلا-أدينا" والمعروف باسم "مردوخ بلادان " (زعيم قبيلة بيت ياكيني) أن ينصّب نفسه ملكاً على بابل في نفس السنة التي اعتلى فيها سرجون الثاني عرش آشور[5]، بمساعدة العيلاميين المادية والعسكرية وتوفير له الملجأ متى ضيَّق عليه الملك الآشوري الخناق وبذلك وجد الملوك العيلاميون آذانا صاغية عند مردوخ بلادان[6].

أصبحت بلاد بابل وعيلام مشكلة أساسية وخطيرة خلال فترة حكم الملك سرجون الثاني إلى درجة أن فقدت آشور سيطرتها على بلاد بابل خلال هذه المدة، ولم تتمكن من استرجاعها إلّا في نهاية حكمه، حيث سعى الملك سرجون الثاني جاهدًا من أجل فرض سيطرته على بلاد بابل، خاصة بعدما وردت أنباء استمالة العيلاميين للملك الكلدي وإعلان الأخير التمرد والعصيان ضدّ السلطة الأشورية ، وقد ورد في إحدى حوليات الملك الأشوري النص التالي[7] : "... **في بداية حكمي، في السنة الأولى لاعتلائي العرش ... دمرته في سهل دير وفرضت سيطرة آشور...**"[8]

ويبدو من خلال النص السالف الذكر أنّ الملك الآشوري قد جهّز حملة عسكرية سنة 721 ق.م لضرب الملك الكلدي غير أنّه وفي طريقه التقى بالقوات العيلامية ولقي مقاومة من الجيوش العيلامية عند مدينة الدير "دور- إيلو" بين دجلة وسلسلة جبال زاغروس[9]، ويذكر الملك الآشوري في حولياته-كما سبق الذكر- أنّه حقق نصرًا ساحقًا على العيلاميين غير أنّ هناك وثيقة بابلية أخرى تذكر أنّ الملك سرجون الثاني انهزم في المعركة، وانسحب بقواته قبل أن تُحسم المعركة، ربّما كان ذلك بسبب ما حدث واستجد على الجهة الغربية من اضطرابات وتشكل حلف معادٍ للسيادة الآشورية فاضطر الملك الآشوري إلى الإسراع للتوجّه هناك[10].

يذكر المؤرخون أن الملك الكلدي (ملك بابل) قد أخفق في الوصول لنجدة حليفه العيلامي وتركه يقابل الجحافل الآشورية وحده في المعركة، ولم تُوضَح المصادر الأثرية والتاريخية نتيجة اللقاء بشكل حاسم، حيث ادعى كلُّ ملك أنّ النصر كان حليفه، فكتب الملك البابلي أنّ النّصر كان حليفه بالرغم من أنّه لم يشترك في المعركة[11]، ويكمن استنتاج ممّا سبق أنّ المعركة في ظل تضارب

الآراء لم تحسم لأيّ من الطرفين، وقد فضّل الملك الأشوري في النهايةالإنسحاب وتجنب الخسائر المادية والبشرية ما لم يلتق بخصمه الرئيسي (الملك البابلي)، لذلك ترك مشكلة بابل وتوجه لمعالجة التمردات التي اندلعت في الجهة الغربية[12]، وقد أخبرنا سرجون الثاني في حولياته عن التآمر بين مردوخ بلادان والعيلاميين قائلًا[13]: "... **مردوخ بلادان ، ملك كلديا ، ابن القاتل ، دعامة الشر ، وناكث الوعد ... الملك العيلامي الذي ساعد بلادان وحرضه على الثورة ضدي، ... وتوجّه نحو سومر وأكّد ، حكم بابل لمدة 12 عامًا ، مدينة الآلهة لكن لم يحكمها بإرادة الآلهة...**"[14]

تشير النصوص إلى أنّ الأوضاع في بلاد بابل بقيت على حالها لمدة اثنتي عشرة سنة، ظلّ فيها مردوخ بلادان حاكمًا عليها، عانت خلالها المدن البابلية كثيرًا، فتردّت الأوضاع الاقتصادية وتحكّمت القبائل الكلدية والعيلامية بالأوضاع الداخلية، وتحالف الملك العيلامي مع الملك البابلي ورفض الأخير دفع الجزية، وهذا ما أجبر الملك الآشوري إلى وضع حدٍ لهذه الأوضاع حسب ما أشارت إليه حوليات الملك سرجون الثاني[15] : **"في عام حكمي الثاني عشر وضع (مردوخ–بلادان) ابن ياكين، ملك كلدو (بلاد الكلدان) الذين يسكنون على شاطئ بحر الشرق (الخليج العربي) وضع ثقته بالبحر المر وأمواجه الجبارة وخرق اليمين وامتنع عن دفع إتاواته فجاء الملك العيلامي لمساعدته...استعد للمعركة ثم انقضّ على بلاد سومر وأكد لمدة اثنتي عشرة سنة وضدّ رغبة الآلهة احكم السيطرة على بلاد بابل مدينة سيد الإله.."**[16]

في عام 710 قبل الميلاد توجّه الملك الآشوري لينهي صراعه مع مردوخ بلادان[17]، حيث قسّم جيشه إلى قسمين أسند قيادة الأول إلى أحد قادته وكانت مهمته تعطيل الجيش العيلامي ومراقبة تحركاته[18]، وقاد الجيش الثاني هو بنفسه ووصل به إلى بابل وأحاط بالمدينة من جهة الشمال فانسحب خصمه الملك البابلي متراجعًا على أمل أن تصله الإمدادات من عيلام لكن دون جدوى، فقد انشغلت القوات العيلامية بمقاتلة الجيش الأول الذي أرسله الملك سرجون الثاني من أجل تعطيل وصول النّجدة للملك البابلي، وقد كان له ما أراد، ولم يصمد الملك البابلي أمام

جحافل الجيش الآشوري ولم يجد سوى الهرب لينقذ نفسه فولى هاربًا إلى المناطق الجنوبية لبلاد البحر، أمّا الملك الآشوري فقد دخل بابل دون مقاومة بل وجد أبوابها مفتوحة ولقي ترحيبًا من الأهالي ونصب الملك الأشوري نفسه ملكًا على بابل سنة 709 قبل الميلاد[19]. ولقد خلّد الملك الأشوري انتصاراته على الملك البابلي في إحدى حولياته قائلا : " ... **قهرت يداي... مردوخ بلادان ملك الكلديين القاطنين على ساحل البحر الذي مارس الملكية على بابل خلافا لرغبة الإلهة فقسمت بلاده الواسعة بالكامل من بدايتها حتى نهايتها...**"[20].

أمّا مردوخ بلادان فقد فرّ إلى بلاد عيلام لينجو بحياته، ومن ثمّ توجّه الملك الأشوري صوب عيلام واستولى في طريقه على المدن العيلامية ونهبها وهجر سكانها، وإزاء هذه الانتصارات اضطر الملك العيلامي "خمبان- نكاش الأول (742-717 ق.م)" إلى التخلي عن حليفه مردوخ بلادان الذي ترك بلاد عيلام، وفرَ هاربًا من القوات الآشورية التي كانت تطارده من مدينة لأخرى وتراقب تحركاته، حيث كانت التقارير تصل إلى الملك الآشوري بالتفصيل عن تحركات الملك البابلي الفار، إذ تذكر أحد النصوص التي تعود إلى الملك سرجون الثاني ما يلي : "... **مردوخ بلادان** ... **في كوثى... من كوثى... إلى النهر ... سأتعهد بمراقبته ... وفي كوثى.... إنّه في نيبور...**"[21].

ويتضح من النص السابق أنّ الملك الآشوري كانت له عيون (جواسيس) مهمتها مراقبة الأعداء وجمع المعلومات وإرسال التقارير وبناءً على هذه المعلومات التي كانت تصله عن مكان مردوخ بلادان، جهّز الملك سرجون الثاني حملة واتّجه إلى دور- ياكين حيث كان يختبئ هناك عند بني قومه الكلديين، ويذكر قائلا [22] :" ... **بيدي القويتين أسرته ... استأصلت دور- ياكين مدينته المحصنة وجعلت أجساد مقاتليه في قاع البحر...**"[23].

تمكّن الملك الآشوري من القضاء على آخر معاقل المقاومة الكلدية باحتلال دور- ياكين، وبحلول سنة 708 قبل الميلاد انتهى دور مردوخ بلادان في المنطقة ولم يرد ذكره في السنوات الأخيرة من حكم الملك سرجون الثاني الذي عفا عنه واكتفى بأخذ الإتاوة منه وإبقائه على زعامة قبيلته، وبذلك أصبح سرجون الثاني خلال سنواته الأخيرة سيد الموقف بعد انتصاراته في ميادين مختلفة وعلى جبهات عديدة، فقد خضعت له بلاد بابل[24]، وسيطر على مناطق واسعة من بلاد

الشرق القديم، إلى أن توفي سنة 705 قبل الميلاد وقد تعدّدت الروايات حول موته في ظروف غامضة منها:

- رواية أشارت أنّه مات مقتولاً داخل قصره بمعنى تعرض لعملية اغتيال.

- رواية تقول أنّه اختفى من مسرح الأحداث السياسية سنة 705 قبل الميلاد من دون ذكر أيّ شيء عن طريقة اختفائه.

- وهناك رواية تقول أنّه مات مقتولًا في إحدى معاركه وهو يقاتل الأعداء[25].

2.عهد الملك سنحاريب (705–681 ق.م)

تولّى الحكم بعد أبيه سرجون الثاني، لاقى في بداية حكمه مشاكل كبيرة ظهرت بوادرها منذ عهد أبيه وتعود إلى ما قبل عهده، وبذلك كان لزامًا على كل واحد منهم أن يتصدّى لها ويعالجها بما يتوافق وأسلوبه الخاص، وكانت أهم تلك المشاكل :

- دولة بابل التي ظلّت تأنف الخضوع للأشوريين وكانت محلًا لأطماع الكلديين الذين ما انفكّوا يسعون إلى السيادة فيها.

- استمرار العداء مع العيلاميين الذين كانوا يدعمون الآراميين ويحرضون البابليين ضد الأشوريين.

اعتلى سنحاريب العرش والذي يتبين من خلال اسمه (سين- أخي- أريبا) (الإله سين عوض موت الأشقاء) أنّه لم يكن الإبن البكر للملك سرجون الثاني حسب قول الأستاذ " جورج رو" وأنّ الاختيار قد وقع عليه ليكون وريثًا للعرش سببه مجهول بعدما تربّى في البيت الملكي[26]، حيث تدرّب على أساليب الإدارة والحكم وقيادة الجيش قبل توليه الحكم عندما كان وليًا للعهد[27]، وقد أُسندت إليه العديد من المهام الإدارية والعسكرية في عهد أبيه خصوصًا على منطقة الحدود الشمالية[28]، لقد كان سنحاريب حاكمًا حازمًا استعمل القوّة والشدّة في حروبه ضدّ أعدائه، كما أدخل العديد من الأسلحة في الجيش الأشوري[29].

وممّا كان يشغل بال الملك الأشوري في أوائل حكمه استئناف مردوخ بلادان تحركاته، الذي سبق وأن عفا عنه أبوه سرجون الثاني بعد القضاء على تمرداته[30]، حيث قام بإثارة الفتن والقلاقل في بابل وذلك بمساعدة العيلاميين[31]، فبعد موت الملك سرجون الثاني غادر مردوخ بلادان مخبأه ووقف الكلديون إلى جانبه وآزره العيلاميون وشجّعوه على التصدّي للآشوريين، فأرسلوا إليه قوّات عيلامية تحت إمارة قائد الجيش الأعلى، وعدد من قوّاد الجيش ووجدوا بذلك فرصة للانتقام من الآشوريين، لما وصلت تلك الأنباء مسامع الملك سنحاريب بادر إلى ضرب تحالفهم على حدّ قوله[32]: " **في بداية حكمي عندما اعتليت العرش ... وحكمت سكان بلاد أشور برحمة وعفو، استمال مردوخ بلادان ملك بابل (المحرض على الثورة والتمرد...) الملك العيلامي إلى جانبه ومنحه ذهبًا وفضّة وأحجار كريمة وأصبح حليفه..."**[33].

يظهر من خلال النص أنّ الملك العيلامي قد قبل هدايا الملك البابلي ووافق على التحالف معه ولبّى دعوته وأرسل الملك العيلامي "شوترك- ناخونتي الثاني (717-699 ق.م)" مددًا عسكريًا يتألف من عشرة قادة وفرق عسكرية و8000 رامي سهم وخيول تحت إمرة القائد " نرجال- ناصر"، ووصلوا إلى بلاد بابل، كما ضمّ هذا التحالف أيضًا القبائل الآرامية والكلدية ومدن نبيور وبورسيبا وكوثى، حشدهم الملك البابلي ضد الملك الأشوري، وفي ظل هذه التطورات تحرّك الجيش الآشوري سنة 703 قبل الميلاد لضرب المتحالفين الذين انقسم جيشهم إلى معسكرين الأول عسكر في كوثى لإعاقة الزحف الأشوري والثاني استقرّ في كيش (تل الأحمر) ويظهر من خلال تتبع سير حملة الملك الأشوري هذه أنّه توجّه أولًا إلى كوثى وتغلّب على جيش التحالف الذي كان يتربّص بالجيش الآشوري، لكنّ الجيش الآشوري حقّق انتصارًا حاسمًا وسيطر بذلك على مدينة كوثى واستولى عليها وورد ذكر ذلك في حوليات الملك سنحاريب قائلا[34]: "**... بغضب قلبي قمت بهجوم على كوثى ... ذبحت الجنود قرب أسوارها كالحملان ثمّ استوليت على المدينة وجلبت الفرسان ورماة السهام العيلاميين والآراميين والكلدانيين وقادة فرق عيلام فضلاً عن نرجال –ناصر مع المتمردين ... جلبتهم كأسرى ..."**[35].

وبعد أن أحكم الملك سنحاريب سيطرته على مدينة كوثى توجّه لملاقاة عدّوه مردوخ بلادان في مدينة كيش، وقد وردت أخبار هذه الحملة في إحدى حولياته الملك بقوله [36]: " ...**في حملتي الأولى، هزمت مردوخ بلادان ، ملك بابل جنبًا إلى جنب مع القوات العيلامية المتحالفة، وفي سهل كيش وفي خضم المعركة تخلى مردوخ بلادان عن معسكره وهرب لينجوا بحياته ... استوليت على المركبات والخيول والعربات والبغال ...دخلت بفرح قصره في بابل...**"[37].

وبعد ذلك دخل الملك الأشوري ليستولي على خزائن قصر مردوخ بلادان في بلاد بابل والمشتملة على[38]: " ...**ذهب وفضة وأوان ذهبية وفضيّة وأحجار كريمة من كلّ الأنواع وممتلكات عديدة، وكل رجال قصره وحريمه وموسيقيّ القصر ذكورًا وإناثًا وحرفييه.. جلبتهم كإتاوة...**"[39].

لقد فرض الملك الآشوري الطوق الأشوري على 75 مدينة في بلاد الكلديين كما أخرج القبائل الكلديين والأراميين الموجودين في نيبور وكيش وكوثى وسيبار وهجّر من تلك المدن سكانهم مع ممتلكاتهم وأسكنهم بلاد آشور، أمّا مردوخ بلادان فقد هرب إلى مناطق الأهوار والمستنقعات كعادته لينجو بجلده، ولترسيخ السيطرة الآشورية على بلاد بابل فقد عين الملك سنحاريب "بيل-ابني" حاكما في بابل حسب ما ورد في حولياته إذ يقول[40]: " ... **وضعت بيل – ابني على عرش بابل...**"[41]، وقد حكم "بيل- ابني" لمدة ثلاث سنوات مابين (703-701 ق.م)[42].

أمّا في الجهة الغربية فبعد وفاة سرجون الثاني بدأت الاضطرابات والتمردات في المدن والدويلات السورية والفينيقية إضافة إلى دويلة يهوذا التي أعلنت العصيان ضد الحكم الآشوري[43]، وامتنعت عن دفع الجزية وشكّلت حلفًا مضادًا للدولة الآشورية، كما تلقى هذا الحلف المساعدة من الملك المصري إضافة إلى اتصالهم بالقبائل الكلدية في بلاد بابل[44]، وتذكر المصادر أن اتفاقًا عقد بين ملك بابل مردوخ بلادان وملك يهوذا (حزقيًا) من أجل فتح جبهات على الملك الآشوري وتخفيف الضغط على كل منهما، وقد حصل تبادل للهدايا بين الجانبين كما ورد ذلك في سفر الملوك الثاني[45]، على إثر ذلك بادر الملك سنحاريب إلى تجهيز حملة نحو الدويلات المتحالفة

في سنة حكمه الرابعة عام 701 قبل الميلاد[46]، إذ توجه نحو الساحل الفينيقي لضرب الدويلات المتحالفة (صور وعسقلان ويهوذا)[47].

أمّا بالنسبة لبلاد بابل فنجد أنّ مردوخ بلادان استغل فرصة انشغال الملك الآشوري بالجهة الغربية من جهة ومساندة القبائل الآرامية ومملكة عيلام من جهة أخرى، توجّه بعدها نحو بابل وخلع حاكمها الموالي للآشوريين وأعلن نفسه ملكًا عليها[48]، وما إن بلغت هذه الأنباء مسامع الملك الآشوري حتى جهّز حملة سنة 700 قبل الميلاد لمهاجمة الثائر الكلدي الذي فرّ إلى موطنه حيث قبيلة " بيت ياكين" ومنها فرّ إلى عيلام أين وجد الملجأ وحمل معه هذه المرة كل ما يملك، أجلس الملك الآشوري ابنه على عرش بابل.[49]

لقد حكم ابن سنحاريب بلاد بابل لمدة ست سنوات مات خلالها الثائر مردوخ بلادان الذي أرهق الدولة الأشورية بثوراته وعقد الأحلاف مع الأعداء، وعلى الرغم من موته فإنّ قبيلته لم تنقطع عن إثارة الفتن والقلاقل في وجه السلطة الآشورية، فعادت مرة أخرى إلى أحضان عيلام حليفتها القديمة وأصبحت مصدر خطر كما كانت سابقًا[50]، نفذ صبر الملك سنحاريب على عيلام وصمّم في سنة 696 قبل الميلاد على معالجة المشكلة العيلامية بشكل نهائي وذلك بمهاجمة مملكة عيلام نفسها[51]، عن طريق البحر (الخليج العربي أو البحر الأدنى) والقضاء عليها، وذلك بقطع الطريق على المنشقّين البابليين الذين طالما كانوا يستغلون الأهوار المحاذية لعيلام للهرب كلما اشتدّ الضغط الآشوري عليهم، وكان الوصول إلى مناطق المدن العيلامية والمتمردين يقتضي عبور نهر دجلة الذي كان الفاصل بينهم[52]، ومن أجل ذلك قام الملك الأشوري ببناء أسطول من السفن واستعان في صنعه بعدد من الصناع الفينيقيين من مدينة صور وصيدا وقبرص[53]، وعملوا لإنجازه عامًا كاملًا على ضفاف نهر دجلة والفرات، ونقلوا أجزاءً منه عن طريق البرّ حتّى وصلوا الخليج العربي ثمّ أبحروا نحو أعدائهم[54]، وبخصوص ذلك يخبرنا الملك سنحاريب في حولياته قائلا : **" ... جلبت صُنّاع بلاد حاتي (سورية) (Hatti) الذين قهرتهم بقوة سلاحي إلى نينوى، فبنو (لي) سفنًا ضخمة على غرار سفن بلادهم وأصدرت أوامري إلى بحّارة من مدن صور وصيدا وقبرص، الذين أسرتهم، بأن يبحروا في السفن في نهر دجلة وينزلوا اليابسة ..."[55].**

حيث أعطى الملك الآشوري أوامره بتسيير الحملة في نهر دجلة إلى مدينة " أوبيس" (Upiss) ومن أوبيس نقلت السفن برًّا من خلال تحريكها على أسطوانات إلى قناة "أراختو" (Arahtu) (ويعرف حاليًا بشط الحلة، وهو فرع من نهر الفرات يمر بمدينة بابل ويتفرع في المنطقة الواقعة بين كوثى وسيبار، ويتجه إلى كيش)، واستمرت الحملة في إبحارها على نهر الفرات وصولاً إلى الخليج العربي أين كانت القوّات البريّة بانتظار الأسطول، وعلى ضوء ذلك يبدو أنّ الملك سنحاريب قد قسّم جيشه إلى قسمين القسم الأول كان تحت قيادته تحرك عن طريق البر، والقسم الثاني أبحر عن طريق نهر الفرات وبخصوص ذلك يخبرنا في حولياته قائلاً [56] : " **بمساعدة الإله آشور سيدي، أصدرت أوامري بالتوجه إلى مدن ناكيتو (Nigitu) وناكيتو- ديباني (Diban-Nagitu) ... وأبحرت بالسفن في نهر دجلة، ومن أوبيس سحبوا السفن على أعمدة إلى اليابسة ومنها إلى قناة أراختو ووضعها في القناة..."**[57].

واصل الجيش الآشوري تقدّمه نحو المنطقة التي يلتقي فيها نهر "كارون" بالخليج العربي والراجح أنّهم تمكّنوا في النهاية من العبور وإحراز النصر في معركة خاطفة عند مصب نهر كارون إذ يرد في نص الحملة ما يلي[58] :" ...**بدأت المعركة عند نهر اولاي (Ulai) وتمكن جندي من احتلال الحوض ونزلوا إلى الساحل ودحروا الأعداء وأسروا حامياتهم العسكرية وجلبوا معهم الغنائم ... "**[59].

وبينما كان الجيش الآشوري منشغل بحملاته وفرض سيطرته على المدن العيلامية في جنوب غربي عيلام بدأ الملك العيلامي "خالوتوش- انشوشناك (699-693 ق.م)" بتجهيز جيش قويّ وهجم على أواسط بلاد الرافدين وغزا بلاد بابل واحتل مدينة سيبار وقبضوا على ابن الملك الأشوري (أشور-نادين- شمس) وأخذوه أسيرًا إلى بلاد عيلام ونُصّب بدلًا عنه كلديا يدعى "نرجال أو شزب" (694-693 ق.م) واستمر هذا الأخير في الحكم ثمانية عشر شهرا [60]، وعلى إثر ذلك انسحب الجيش الآشوري من الجنوب بحذر واصطدم بقوات "نرجال- أوشزب" في مدينة نيبور ودحرته وذلك في منتصف سنة 693 قبل الميلاد[61]، وفي خضم هذه الأحداث طرأت تغيّرات في بلاد عيلام حيث قتل خلالها الملك العيلامي وخلفه في الحكم "كودر- ناخونتي

(693-629 ق.م)" وتعاونت عيلام مرة ثانية مع المتمردين الكلديين ونصّبت أحد الزعماء الكلديين ملكاً على بابل[62] .

هذا ما دفع بالملك سنحاريب هذه المرة أيضا توجيه حملة ضدّ عيلام وغزوها مّرة أخرى واتّخذ لذلك كلّ التدابير اللازمة، وفي سنة 692 ق.م توجّه بحملة ضدّ منطقة الدير[63]، ثمّ وجّه حملات ضدّ المدن العيلامية المجاورة لها وتمكّن من إخضاع أربع وثلاثين مدينة (34) وإلحاقها بالإمبراطورية الآشورية، وبعدما وصلت أنباء هذه الانتصارات مسامع الملك العيلامي شعر بالخطر وفرّ من عاصمته، وعن أخبار هذا الانتصار يخبرنا الملك سنحاريب في حولياته قائلا:[64] :" ...**كودر– ناخوتي، ملك عيلام، عندما سمع بسيطرة قواتي على مدنه ...، قرر الهرب بنفسه من مدينته الرئيسية مداكتو (عاصمته)، ولاذ بالفرار إلى مدينة خيدالا (Haidala) التي تقع في وسط الجبال** ..."[65].

بعد ذلك عاد الملك سنحاريب إلى بلاد آشور، وقام بإلحاق إدارة المدن العيلامية التي أخضعها لسيطرته بمقاطعة الدير الحدودية، ويبدو أن سبب عودة الملك الآشوري من حملته وعدم الاستمرار بملاحقة العدو في تلك المناطق الجبلية كان نتيجة للظروف المناخية القاسية مع بداية فصل الشتاء وذلك عام 693 قبل الميلاد[66].

يبدو أن ملك بابل استغل فترة انشغال الملك سنحاريب بشؤون بلاد عيلام وحكم مدة أربع سنوات مستوليًّا على خزائن معبد مردوخ، وأعلن عصيانه بمساعدة العيلاميين الذين قدّم لهم رشاوي فشكّلوا جيشًا وزحفوا شمالًا بمحاذاة نهر دجلة بحدود سنة 689 قبل الميلاد وعند نهر "خالولة" بالقرب من نهر ديالي اشتبك الطرفان وتكبّدوا خسائر كبيرة في هذه المعركة، وادّعى الملك الآشوري أنّ النّصر كان حليفه في النهاية[67].

ثمّ توجّه هذا الأخير إلى مدينة بابل نفسها وفي حالة غضب حاصر المدينة وصبَّ جام غضبه عليها[68]، لم تستطع مدينة بابل مقاومة الحصار لمدة تسعة أشهر واضطرت في الأخير إلى الاستسلام وفتحها الملك الآشوري عنوة ودمّر مبانيها ونهب قصورها ومعابدها ودكَّ حصونها ثمّ

انتقم منها شرّ انتقام وذلك بفتح مياه الفرات عليها فأُغرقت بالماء، ويروي الملك الأشوري في حولياته أخبار هذه الحادثة بقوله[69] : **"هاجمتها كالإعصار، وكالعاصفة أطحت بها ... لم أترك من سكانها شيبًا ولا شبابًا... ملأت بجثثهم طرقاتها، أمّا المدينة نفسها وبيوتها فقد حطّمتها وخرّبتها وبالنيران أحرقتها ودمّرتها من أسسها... ولكي ينسى الناس في المستقبل حتّى تراب معابدها، لذلك سلطت عليها الماء فحولتها إلى مراع..."**[70].

ترك الملك سنحاريب ابنه أسرحدون حاكمًا على بلاد بابل[71]، وانتهت حياة هذا الملك سنة 681 قبل الميلاد على يد أحد أبنائه حيث تذكر المصادر البابلية أنه سقط على إثرها قتيلًا[72]، كما ذكر الكتاب المقدس أنّ الملك سنحاريب اغتيل من قبل أحد أبنائه وهو يتعبد داخل المعبد[73].

الخاتمة :

ظلّ الصراع الآشوري العيلامي سجالًا بين الطرفين ولم يحسم لأيَ منهما خلال هذه الفترة، فإذا انشغل الملوك الأشوريين بجبهات أخرى يبادر مُلوك عيلام بتجهيز حملات ضدّ بلاد بابل أحيانًا، وأحيانًا أخرى يلجؤون إلى نشر الفتن والقلاقل وذلك بتحرَيض ملوك بابل وتأليب القبائل الأرامية والكلدية ضدّ السلطة الأشورية، وبذلك نجد أنّ عيلام كانت المشكلة الرئيسية لملوك الدولة الأشورية خلال هذه الفترة.

المراجع:

أ- المراجع العربية

1- أحمد أرجيم هبو، تاريخ الشرق القديم (العراق)، دار الحكمة اليمانية، اليمن، 1996.

2- أحمد حشود، "حملات ملوك أشور على عيلام من منتصف القرن الثامن وحتى نهاية القرن السابع قبل الميلاد"، مجلة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد (38)، العدد (6)، قسم الآداب والعلوم الإنسانية،سورية، (2016).

3- أحمد زيدان، " الصراع الأشوري مع القبائل الكلدية على السلطة في بابل"، مجلة آداب الرافدين، العدد (50)، العراق، (2008).

4- أدي شير، تاريخ كلدو وأثور، مكتب الأستاذ، لبنان، 2007، ص 125.

5- برهان الدين دلو، حضارة مصر والعراق (التاريخ الإقتصادي - الإجتماعي الثقافي والسياسي)، ط1، دار الفارابي، لبنان، (1989).

6- جمال السليماني، العلاقات السياسية لبلاد الرافدين مع عيلام خلال العصر الأشوري الحديث، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد، 2003.

7- جورج رو، العراق القديم، تر : علون حسين، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986.

8- خالد الخطاب الجبوري، جوانب من أعمال الملك سرجون الثاني في العواصم الأشورية، ط1، رؤى للطباعة والنشر، العراق، (2018).

9- زيدان، أحمد. (2007). «تحديات مردوك- إبلا-أدينا (الثاني) ضد الدولة الأشورية (721-700 ق.م) ». مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد(14)، العدد(2).

10- سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، دار الرُقي، بيروت، (1986).

11- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بيت الوراق للطباعة والنشر، ط1، بغداد، (2009)، ج1.

12- عامر سليمان، العلاقات السياسية الخارجية، حضارة العراق ، دار الحرية، بغداد، (1985) ، ج2.

13- عامر سليمان، منطقة الموصل في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد (العصر الأشوري الحديث)، موسوعة الموصل الحضارية،ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، (1991)، ج1.

14- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم (العراق)، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، (2015).

15- فرج بصمه جي، كنوز المتحف العراقي، مديرية الآثار العامة، العراق، 1972.

16- نصار سليمان السعدون، بلاد الرافدين وعيلام، دار آرام للنشر والتوزيع، دمشق، (2019).

17- هاري ساغز، عظمة بابل، تر: عامر سليمان، جامعة الموصل، 1979.

18- هاري ساكز، عظمة أشور، تر: خالد عيسى و أحمد سبانو، دار رسلان، سوريا، (2017).

ب- المراجع الأجنبية :

1- A. H. SAYCE, History Of Babylonia, The Committee Of General Literature And Education, London.

2- Georges Roux, La Mésopotamie, Penguin Books Ltd, Paris, (1992).

3- Grayson, The Royal Inscription of Mesopotamia Assyrian, University of Toronto Press, Canada, vol (II), (2002).

4- J. B. Fraser, Mesopotamia And Assyria, Printed by Oliver & Boyd, London, (1841).

5- John Boardman and others, The Cambrig Ancient History, Cambridge University Press, USA, Vol (III), (1991).

6- Luckenbill, ancient records of assyria and babylonia, University of Chicago Press, USA, VOL (II) ,(1927).

7- Luckenbill, The annals of sennacherib, the university of chicago, USA ,1924

8- Paul-Alain Beaulieu, A History of Babylon (2200 BC - 75 AD), John Wiley & Sons Ltd, USA, (2018).

الهوامش:

[1]ـ نصار سليمان السعدون، بلاد الرافدين وعيلام، دار آرام للنشر والتوزيع، (دمشق، 2019)، ص 145.

[2]ـ طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (بيت الوراق للطباعة والنشر، ط1، بغداد، 2009، ج1)، ص 564.

[3]ـ سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، دار الرُقي، بيروت، (1986)، ص 70.

[4]_ Georges Roux, La Mésopotamie, (Penguin Books Ltd, Paris, 1992), P 357.

[5]ـ طه باقر، المرجع السابق، ص 564.

[6]ـ عامر سليمان، منطقة الموصل في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد (العصر الأشوري الحديث)، موسوعة الموصل الحضارية، (ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1991، ج1)،ص 96.

[7]_ John Boardman and others, The Cambrig Ancient History, (Cambridge University Press, USA, Vol (III), 1991), P 48-49.

[8]_ Luckenbill, ancient records of assyria and babylonia, (University of Chicago Press, USA, VOL (II) , 1927), P 2.

[9]- زيدان، أحمد. (2007). «تحديات مردوك- إبلا-أدينا (الثاني) ضد الدولة الأشورية (721-700 ق.م) ». مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد(14)، العدد(2)، ص 192.

[10]ـ جورج رو، العراق القديم، تر : علون حسين، (دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986) ، ص 416.

[11]- زيدان، أحمد، المرجع السابق، ص 192.

[12]ـ نفسه، ص 193

[13]ـ جمال السليماني، العلاقات السياسية لبلاد الرافدين مع عيلام خلال العصر الأشوري الحديث، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد، 2003، ص 98.

[14]_ Luckenbill, Op.Cit, P 33.

[15]ـ عامر سليمان، منطقة...، موسوعة الموصل الحضارية، المرجع السابق، ج1، ص 96.

[16]_ Luckenbill, Op.Cit, P 14.

[17]ـ فرج بصمه جي، كنوز المتحف العراقي، (مديرية الآثار العامة، العراق، 1972)، ص 54.

[18]ـ أدي شير، تاريخ كلدو وأثور، مكتب الأستاذ، لبنان، 2007، ص 125.

[19]ـ أحمد أرجيم هبو، تاريخ الشرق القديم (العراق)، (دار الحكمة اليمانية، اليمن، 1996)، ص 228-229.

[20]_ Luckenbill, Op.Cit, P 15-16

[21]ـ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 195-196.

[22]ـ نفسه، ص 196.

[23]_ Luckenbill, Op.Cit, P 46.

[24]ـ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 196.

(25)_ خالد الخطاب الجبوري، جوانب من أعمال الملك سرجون الثاني في العواصم الأشورية، (ط1، رؤى للطباعة والنشر، العراق، 2018)، ص154.

(26)_ جورج رو، المرجع السابق، ص 426.

(27)_ عامر سليمان، منطقة...، موسوعة الموصل الحضارية، المرجع السابق،ج1، ص 92.

(28)_ Georges Roux, Op Cit, P 364.

(29)_ برهان الدين دلو، حضارة مصر والعراق (التاريخ الإقتصادي - الإجتماعي الثقافي والسياسي)، (ط1، دار الفارابي، لبنان، 1989)، ص 241.

(30)_ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 198.

(31)_ هاري ساكز، عظمة أشور، تر: خالد عيسى و أحمد سبانو، (دار رسلان، سوريا، 2017)، ص134.

(32)_ أحمد أرجيم هبو، المرجع السابق، ص231.

(33)_ Luckenbill, Op.Cit, P 116.

(34)_ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 198-199.

(35)_ Grayson, The Royal Inscription of Mesopotamia Assyrian, (University of Toronto Press, Canada, vol (II), 2002), P 295.

(36)_ Luckenbill, The annals of sennacherib, (the university of chicago, USA ,1924), P10.

(37)_ Paul-Alain Beaulieu, A History of Babylon (2200 BC - 75 AD), (John Wiley & Sons Ltd, USA, 2018), P230.

(38)_ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 199.

(39)_ Grayson , Op.Cit, vol (III), Part (II) , P 77.

(40)_ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 199-200.

(41)_ Grayson , Op.Cit, vol (III), Part (II) , P 298.

(42)_ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 200.

(43)_ عامر سليمان، منطقة...، موسوعة الموصل الحضارية، المرجع السابق، ج1، ص 98.

(44)_ عامر سليمان، العلاقات السياسية الخارجية، حضارة العراق ، (دار الحرية، بغداد، 1985 ، ج2)، ص124.

(45)_ أحمد زيدان، المرجع السابق، ص 202.

(46)_ طه باقر، المرجع السابق، ص .570

(47)_ برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص 241.

(48)_ عامر سليمان، منطقة...، موسوعة الموصل الحضارية، المرجع السابق، ج1، ص99.

(49)_ أحمد أرجيم هبو، المرجع السابق، ص233.

(50)_ أحمد زيدان، " الصراع الأشوري مع القبائل الكلدية على السلطة في بابل"، مجلة آداب الرافدين، العدد (50)، العراق، (2008)، ص35.

(51)_ أحمد حشود، "حملات ملوك أشور على عيلام من منتصف القرن الثامن وحتى نهاية القرن السابع قبل الميلاد"، مجلة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد (38)، العدد (6)، قسم الآداب والعلوم الإنسانية،سورية، (2016)، ص 349.

(52)_ نصار سليمان السعدون، المرجع السابق، ص149.

(53)_ عامر سليمان، منطقة...، موسوعة الموصل الحضارية، المرجع السابق، ج1، ص100.

(54)_ عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم (العراق)، (مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 2015)، ص 249.

(55)_ Luckenbill, The annals, Op.Cit, P77.

(56)_ نصار سليمان السعدون، المرجع السابق، ص150.

(57)_ Luckenbill, The annals, Op.Cit, P77.

(58)_ نصار سليمان السعدون، المرجع السابق، ص152.

(59)_ Luckenbill, Ancient, Op.Cit, P 132.

(60)_ نصار سليمان السعدون، المرجع السابق، ص152.

(61)_ هاري ساغز، عظمة بابل، تر: عامر سليمان، جامعة الموصل، 1979، ص152.

(62)_ عامر سليمان، منطقة...، موسوعة الموصل الحضارية، المرجع السابق، ج1، ص100.

(63)_ هاري ساغز، عظمة بابل، المرجع السابق، ص152.

(64)_ نصار سليمان السعدون، المرجع السابق، ص154.

(65) _ Luckenbill, Ancient, Op.Cit, P 124.

(66)_ نصار سليمان السعدون، المرجع السابق، ص154.

(67)_ هاري ساغز، عظمة بابل، المرجع السابق، ص152-153.

(68)_ عامر سليمان، منطقة...، موسوعة الموصل الحضارية، المرجع السابق، ج1، ص100.

(69)_ A. SAYCE, History Of Babylonia, (The Committee Of General Literature And Education, London), P 136.

(70)_ Georges Roux, Op Cit, P 367.

(71)_ طه باقر، المرجع السابق، ج1، ص 571.

(72)_ أحمد أرجيم هبو، المرجع السابق، ص235.

(73)_ J. Fraser, Mesopotamia And Assyria, (Printed by Oliver & Boyd, London, 1841), P 86.